مصير الحضارات

الحضارة والبيولوجيا

اذا اتيحت لنا بيئة مواتية فلا مندوحة لزرع الحضارة فيها عن توطن شعب حيّ نشيط مقدام لتتغلب على القلوات الشاسعة واخضاع الطبيعة للحرث والزرع والصناعة وغيرها من مقوّمات العمران . وقد مرّ بنا ان الاستاذ فلندرز بتري يذهب الى ان «امتزاج السلائل البشرية لابدّ منهُ لتوطئة لكل حضارة جديدة» وان نتائج الامتزاج بينها شبيهة بما يسفر عنهُ اتحاد كاتيين من الكائنات البروتوزية من تجديد النشاط والقوة والخصب بعد اتحادهما وتبادلهما مادة نواتيهما . ويرى الاستاذ بتري ان السلالة الجديدة تبلغ ذروة نشاطها وقوتها بعد انقضاء ثمانية قرون على الامتزاج ثمّ تستمرُّ في الذروة نحو اربعة قرون الى خمسة . فامتزاج قبائل الفال والفرانك وغيرها في ايام كلوفيس وشرلمان قد سبق ازدهار الحضارة الفرنسية في ايام رابليه وموتين بثمانية قرون . كما سبق اختلاط « الانجليز » و«السكسون » و «الجوت» عصر شكسبير وباكون بذلك المدى من الزمان

ولسنا نجد في الامم الاخرى امثلة تؤيد مذهب الاستاذ بتري هذا التأييد الدقيق . ولكننا نستطيع ان نسلم بأن امتزاج السلائل يزعزع اركان الحضارة زعزعة الى حين ثم اذا اسفر عن سلالة جديدة مستقرّة اصبح من اركان نهوض الحضارة ورقيها. فاختلاط سلالة بالاخرى قد يزيل من السلالة الجديدة بعض الصفات المتحدثة في خلُق الانثين ويقوي الصفات القديمة الاساسية التي يتصف بها الدم والجسد . وهذا التجديد الذي يظهر في السلالة الجديدة يكون اجلى واسرع في بلاد بكر منهُ في بيئة قديمة اعتادتها السلالات لان من شأن الهجرات الى البيئات الجديدة ان تنتخب من الافراد مَن كان كثير الحيوية جمّ النشاط قليل الثقافة ضئيل التهذيب . فما نراه في الولايات المتحدة الاميركية من « فوضى الدم » لكثرة الشعوب التي هاجرت اليها وأخذت تمازج لا بدّ ان يسفر يوماً ما — او هو قد بدأ يسفر — عن سلالة مستقرة تبني حضارة جديدة

هذا بحسب مذهب بتري . ولكن ماذا نقول في رأي غوبينو ونيتشه وتشمبرلين وغيرهم القائلين بأن التزاوج بين شعبين مميزين احدهما عن الآخر يفضي الى انحطاط اخلاقهما وتلاشي تفاقهما. ونحن نرى (مؤلف الكتاب الذي نأخذ عنهُ) انهم وضعوا العربة

قبل الحصان . اي ان انحطاط الشعوب ادى الى تزاوجها . فانحطاط الامبراطورية الرومانية بدأ قبل اكتساح القبائل الشمالية لها . بدأ بفساد الخصب من التربة ونضوب السلالة الرومانية القديمة من الحيوية . فتزاوجهم مع الجرمانيين كان نتيجة لضعفهم لا علة له . وموطن الضعف في مذهب الاستاذ بتري ، ان حيوية السلالة ، كحيوية الفرد، لها حدود ولا مندوحة عن انتقالها في ادوار من الطفولة والمراهقة والهرم . فالاستاذ بتري ، بما هو مأثور عن حب الاساتيذ لتنظيم آرائهم ، يقول بأن حياة الشعب تدور دورة كاملة بين الحياة والموت ولها ادوار بينها متساوية الطول في اغلب الاحوال . ولكن الحياة تفلت من اقيسة العلماء. فالشعوب التي تحرث الارض مثلاً قد تطول ادوار حياتها فتختلف بذلك عن الامم الآخذة بالحضارة الصناعية وما يلازمها من سرعة وتعب يهدان الاعصاب هداً

ولعل هذا هو السر الذي انضب من السلالة الرومانية القديمة حيويتها ونشاطها . فقد اضاعت قوتها الموروثة لما نزعت جذورها من التراب وحولت رجالها الاشداء الى طبقة من الموظفين في مدينة مزدحمة كروما . ولا مندوحة عن المدن للمدنية ولكنها تنطوي على بزور الانحطاط الشعبي . فالاعمال التي يعملها الناس قعوداً ، والدور المغلقة والشوارع المزدحمة والملابس الناعمة والطعام المترف وكثرة وسائل العدوى والضعف تعمل معاً على اضعاف السلالة رغماً عن اساليب الصحة العامة التي تقلل وفيات الاطفال وتمد في طول الحياة . فالاوبئة قضت على نصف سكان روما وتركتها ضعيفة امام عصابات الجرمان لا تقوى على رد غائلتهم . والموت الاسود (الطاعون) نشأ في انكلترا فكان من اقوى العوامل التي اتت على عهد الفدّية فيها . ان اقوى اعداء الانسان لا يرى الا على شريحة المكرسكوب

ولكن ثمة عامل اقوى فعلاً مما تقدم فيما للحياة المدنية (سكنى المدن) من اثر في مصير الشعب . وذلك تحديد النسل تحديداً ارادياً . فالاسر تصغر كلما اتسع نطاق المدن والمدن تنمو بما تلتهمه من ابناء القرى والدساكر لا بما يلده ابناؤها الساكنون فيها . فالقوم الذين يعمرون المدن يضمحلون رويداً رويداً لقلة نسلهم. وهكذا ضعف سكان روما. فلما تغلب عليهم الجرمان تغذوا عليهم بأمهاتهم ! وقد حاول قيصر ان يعالج ذلك فكان يمنح جوائز للآباء والامهات الرومان الذين يلدون اكبر عدد من الاولاد . وكان يحمل على العقم فيمنع النساء العواقر من لبس الجوهرات . وكان اغسطس قيصر يفرض غرامات على العازبين — كما يفعل موسوليني الآن — وكان يمنح الامهات هدايا من الدولة لدى ولادة ولد . وعادى قسطنطين فعرض على الامهات عناية الدولة بأولادهن اذا كن لا يستطعن القيام بنفقة تربيتهم . فلم تسفر مساعيهم عن نتيجة ما . ولا بد من ان عقمي

متوسط المواليد في سبيل القلة حيث تجد الأسر القليلة الاولاد فائدة اقتصادية تميزها عن الاسر الكثيرة الاولاد . لا يغني عن ذلك وعظ الوعاظ ومحاولة الحكام. لأن هذه الامور لا تخضع لاحكام الفلسفة

فهل يقضي تضاؤل متوسط المواليد في عصرنا على حضارتنا ؟ لقد سمعنا اصوات النادبين القائلين بأن الصفات المتأملة في الامم المتمدنة قد خفضت متوسط مواليدها الى حدٍّ يدعو الى النزع وأنَّ الطبَّ والصحة العامة وملاجئ المحسنين تقاوم الطبيعة بإبقاء من لا يستطيع النزاع في معترك البقاء وأن الطبقات الاجتماعية السفلى أخذت تتغلب على العليا بكثرة مواليدها وان ما يبذل من المساعي لنشر التعليم ينقضه عقم المتعلمين. فالامم المتمدنة آخذة في سبيل الانحدار الى اضمحلال حيوي

قد يكون في كلِّ هذه الاقوال شيء من الصحة ولكنها ليست اقوالاً تعتمد على البيولوجيا . فلا ريب في أن صعوبة عمل المهذب تتضاعف لأن ذراري اليوم يلدهم اناس جهَّال متعصبون . ولكن اذا نظرنا الى المسألة من الوجهة البيولوجية لم نجدها كارثة تقضي على العمران. فالعلم لا ينتقل مع الكروموسومات بالوراثة. حتى اولاد الاساتذة لابدَّ أن يتعلموا كما يتعلم غيرهم ويمرُّوا في كل ادوار الدراسة. وما من نبي يستطيع أن ينبئ عما يخفيه اطفال الفقراء من المقدرة العقلية والنبوغ الفكري . فالحيوية الجسدية ، من الوجهة البيولوجية ، اعلى مقاماً في نهضات الامم من التقاليد العقلية . وقوة الخلق من الوجهة الاجتماعية اعظم قيمة من سعة المعرفة وضخامة الثروة . والفلاسفة قلما يكونون افضل الوالدين . فنيتشه كان يعتقد ان اصفى الدماء تجري في عروق الفلاحين الالمان . وهكذا في معظم شعوب الارض

ولعل أعظم النعم التي اتيحت للحضارة ، ان تكون المادة المقدمة للتعليم في المدارس خارجة من بيوت عرفت بقوة الحيوية وقوة الخلق ، ولو كانت نعمة مقنعة . لاريب في وجوب وضع المعرفة الخاصة بتحديد النسل وضعاً قانونيًّا ، والسعي لمنع تناسل المعتوهين والمصابين بأمراض وراثية ، ورفع مستوى الضمير الاجتماعي من الوجهة الصحية واليوجنية . ولكن لا ريب كذلك في وجوب الاعتماد على البيئة والتهذيب في اعداد ابناء كل الطبقات لترقية الحضارة ونقلها من جيل الى جيل بدلاً من الاعتماد على ابناء الطبقات العليا فقط . فالوراثة ليست سوى عامل ضئيل في حفظ النوع . والنشوء الآن ليس بيولوجيًّا بل اجتماعيًّا . اعطونا سلالة سليمة ومدارس راقية ، وخذوا منا ضمانة على حفظ النوع

الحضارة والاجتماع

فالحضارة تستمد على وسائل الانتخاب اكثر من اعتمادها على طبيعة المنشآت العمرانية وتقوم على طبيعة البيئة وطبيعة التهذيب اكثر من قيامها على ازالة الضعفاء بقوة الاقوياء. وما يخالجنا من الريبة لدى نظرنا للمستقبل لا يدور حول تاريخ هذه الاسرة او تلك بل يدور حول الوسائل الاجتماعية التي انقضى عنها قرون وهي تنظم ارتقاء البشر وتدعمه أعني المعبد والاسرة والمدرسة : فاهي حالها كوسائل لتنظيم الحضارة ونقلها من جيل الى جيل؟

لقد فقدت الكنيسة المسيحية جانباً كبيراً من المقام العظيم الذي جعلها في عصور مضت سيدة اوربا وفي عهد انقسام اوربا وحروبها عاملاً فعالاً من عوامل التربية والآداب يساوي مقام اعظم الدول واقواها . لقد مضى عهد هلدبراند وكالفن ووسلي . اننا لا نعرف رجلاً في هذا العصر جعل صوته صوتاً يعرب عن ضمير الامة واستطاع ان يحرز من القوة والمقام ما للملوك والرؤساء . ومنذ قام لوثيروس بالاصلاح الديني في القرن السادس عشر مؤيداً من بعض الامراء الالمان أخذت الدولة تتخذ لنفسها شيئاً فشيئاً ما كان للكنيسة من مقام ونفوذ فانحطت بذلك زعامة الكهنة الادبية

فدارس التاريخ يرى في انحلال العقائد واختلاط بعضها ببعض وزوال المصادر الدينية لآداب النفس والسلوك مظاهر خطيرة لا مندوحة عنها لفهم حاضر العمران ومستقبله . ويندر ان نجد في عصور التاريخ عصراً هبط فيه صدق العقيدة الدينية (المسيحية) الى هذا المستوى الذي بلغته الآن . ويندر كذلك العثور على عصر كانت فيه آداب الناس عرضة لعوامل الضغط والانقلاب كهذا العصر . هل تستطيع الدولة ان تحافظ على النظام الاجتماعي من غير معاونة الكنيسة ؟ وهل يحتفظ الانسان بمستوى عال لادب النفس اذا اقام بنيانه على التعليم وحده بدلاً من اقامته على العقيدة الدينية والايمان الروحي؟ وهل المدرسة العصرية بدل واف من الكنيسة والبيت ؟ الا تذيع في الناس علماً لا حكمة ومعرفة لا فهماً وبراعة تخلو من وازع الضمير ؟ الا تطبع ابناءها بقوة ميكانيكية للتكيف بحسب مقتضيات البيئة بدلاً من ان تخلق فيهم احساساً عميقاً بالجمال والابداع ؟

اما الدين فيحتاج الى فصل على حدة . وأما الاسرة في العمران الحديث فتتداولها ايدي التقلب والانحلال . والاسرة ركن كل حضارة عرفها التاريخ . فقد كان وحدة العمران الاقتصادية والانتاجية في عصور المدنيات الزراعية . وكانت الوحدة السياسية الاجتماعية يتلخص فيها نظام الدولة السياسي ويحل الوالد فيها محل الرئيس أو الملك . وكانت وحدة العمران الثقافية

لتعليم الصغار وتنشئتهم فينقلون الفنون والآداب من جيل الى جيل . وكان وحدة المجتمع الادبية تبثُّ فيهم عن طريق التعاون والنظام تلك الميول الاجتماعية التي تحببها سدى كل جماعة متمدنة ولحمتها . فكانت في كثير من نواحي العمران اكثر ضرورة لهُ من الدولة تكسر سفن الحكومات على صخور الاختلاف ويبقى النظام الاجتماعي بسبب الاسرة ، لايأتيه البث من بين يديه ولا خلفه . لذلك يقول الاجتماعيون بانهُ اذا زال نظام الاسرة تقوّضت دعائم العمران

ولكن الدولة اليوم تزداد قوة يوماً اثر يوم في حين ان الاسرة تتحول من بيوت الى دور ومن اطفال الى جراء . لا يزال الرجال والنساء يتزاوجون ويلدون احياناً . ولكن التزاوج ليس زواجاً . وليس كل زواج سبيلاً الى الامومة والابوة وقلما تكون الابوة والامومة سبيلاً الى تنشئة الصغار وتهذيبهم . فاطلاق الزواج من قيوده الادبية والدينية الاولى ، واباحة الطلاق الى مداه المشاهد في اميركا واوربا يقلبان وجه الزواج الحقيقي . ثم ان المستنبطات الكيماوية والطبية المختلفة تنضب قوة التناسل على غير طائل والمدرسة تحتضن الطفل بدلاً من امهِ والدولة تغتصب سلطة الاب في تعليمهِ وتثقيفهِ . ثم يحاول المعلم والبوليس ان يحافظا على نظام الاسرة القديم في البيوت فيعجزان . وفوق كلّ هذا تحلُّ الصناعة محل الزراعة في اكبر الامم المتحضرة ، والعمل الفردي يقوم على انقاض العمل المجتمع في حقول الحقول . ولم يبق من النظام القديم الا غرفة نوم وعاطفة — كثيراً ما تكون زائلة — تربط رجلاً بامرأة وتصل بين الابناء والبنات وبين الموقد الذي اجتمعوا حولهُ صغاراً . لقد اصبحت الدولة في المقام الاول من عناية الناس بدلاً من الاسرة

ولكن هل الدولة ، وهذه مبلغ رسوخها اقتصاداً وادباً ، قوية تستطيع ان تقوم باعباء هذه التبعة الملقاة على عاتقها فتتمكن من المحافظة على الارث الانساني النبيل ، في المعرفة والفن والادب ، وتوسيع لطائفهِ ونقلهِ من جيل الى جيل . وهذا الارث هو عماد العمران وروحهُ وسرُّ حياتهِ ؟ او هي — اي الدولة — بوسائل السياسة المتبعة الآن تصح غالباً نهباً مقسماً بين رجال من الطبقة الثانية او الثالثة لا يدركون للمعرفة قيمة ، والفن سرٌّ محجوب عن ابصارهم ؟ لماذا نرى ان اصغر الرجال في اميركا يحكمون اكبر المدن ؟ ولماذا نرى ان الطريق الى المناصب هو طريق الاحزاب حيث الطاعة والامتثال احدى للطابع من الحكمة السياسية والغيرة الوطنية والتمسك بالعقيدة والمبدإ ونواهي الضمير . ولماذا نشهد الفساد السياسي ، وتبديد الاموال العامة ، واخاديع الانتخابات ، والناس لا يحركون من اجلها ساكناً بالغة اذاعة الصحف لها ما بلغت ؟ ولماذا نشهد ان اكبر

اعمال الدولة الآن انما هو قمع الجرائم (او حمايتها) والاستعداد للحرب. في الفترات التي تتخلل مؤتمرات الصلح ? هل الدولة هي النظام الذي تتخلى له الكنيسة والاسرة عن شرف القوامة على العمران ?

لنقلها ثانية ! الثروة العظيمة تنطوي على خطر عظيم للمجتمع لانطوائها على وسائل فعالة لرقيه. ولما كانت مواهب الناس مختلفة فالتباين بين الثروات التي يجمعونها يزداد بازدياد المستنبطات. والآلات الجديدة تضاعف قوة الحريثين من اصحاب المشروعات الكبيرة فتتسع الهوة التي تفصل بين الطبقات الاجتماعية وتعرض الجسم السياسي الى ضغط شديد. كذلك اذا اتسعت الثروة هدّد الترف الحيوية الجسدية والادبية في الجنس البشري. واصبح الناس يرون اشباع حاجات الجسد مقدماً على الانتاج في ميادين العمل، والملاهي ادعى للغاية من السعادة والابداع. فينخر السوس في حيوية الشعب وتفشو فيه حوادث الاعياء العصبي ويعلو مقام الاطباء النفسيين وتتداعى اركان الخلق فاذا عصفت العاصفة وانا خت الازمة على الامة بكلكلها فما يعصم الامة من الرضوخ لها ?

ولقد وصف احد الكتّاب هذه الحال وصفاً بليغاً دقيقاً عليه مسحة من روح التشاؤم قال :

« امامك شعب بعث فيه القوة والنشاط تعرضه لشظف العيش وخشونة البيئة، تدفعه من موطنه البواعث التي تدفع النفس الى الكفاح في سبيل الحياة فيطغى على شعب اقل حيوية فيتغلب على امره ويطرده من بلاده او يمتزج به. فتمكنه عادات العزم والنشاط التي نشأت في بيئة غير مواتية من البصيرة والتروي في بيئة جديدة مواتية. فتنشأ طبقة همها الاكبر الترف، تحتقر الجهد الجسدي والعمل وتبدع في فنون الترف ما شاء لها الابداع. والترف يبعد عن مضاربة والمضاربة تزيل الآراء التقليدية والعادات الموروثة وتنمي دقة احساس تحل في النفس الحزم في العمل، ويروح الفكر رائداً في تيه من التحليل فيكتشف الفرد وراء المجتمع ويرتد الفرد الى ذاته فيكتشفها بعد ما كان عمله كجزء من المجتمع قد ألهاه عنها. فيضعف الشعور بوجود مصلحة عامة ويتحول المواطنون الى افراد

ثم من بلد بعيد يبدو شعب جديد، يكافح قوة الطبيعة في بيئة غير مواتية فيصل الى هذه البلاد ويشهد فيها الطرق المعبدة والتلال الوفيرة والترف فينقلب من عامل الى حالم . . . . والقصة فيها تلو كالقصة فيما تقدم . . !

بناء الحضارات

فهل الحضارة باقية ابد الدهر ?

من الطبيعي اننا لا نقصد في سؤالنا بقاء الارض ولا نحن نقصد بقاء سلالة من السلائل او امة من الامم. فالراجح ان الارض باقية وان السلائل والامم زائلة. وانما نحن نسأل هل

يتاح للحضارة البقاء الى ما شاء الله أم هل مصيرها الى الدمار والاضمحلال من دهر الى دهر؟ ان الحضارة ليس شيئاً مادياً يرتبط ببقعة من الارض لا انفصال لهُ عنها . بل هي مجموعة خفية معقدة التركيب . من المآتي الفنية والصناعية والمبدعات الثقافية . فاذا استطعنا ان ننقل هذه المجموعة من بلاد نضبت حيوية شعبها واضمحلّ سلطانهم، الى بلاد بكر وشعب نشيط كنا قد حافظنا على الحضارة الى مدى بعيد ودبرنا لها سبيل الخلود بعد أطلال العروش والطواء صفحات السياسيين والقواد والجيوش

في هذا المعنى المحدود لا يصحّ القول بان الحضارات تضمحلّ . انما تضمحلّ الشعوب والامم . فالحضارة اليونانية لم تبد . انما البلاد التي انجبت في الماضي هوميروس وارسطوطاليس والاسكندر وغيرهما قد نضبت من النبوغ

في بلدان اخرى لا يزال هوميروس ينشد غضب اخيليس ، والاسكندر يغزو البلدان حتى يصل الى ضفاف الكنج، وهزيود يترنم اغانيه القروية ، وبندار يضع على جباه الفائزين اكاليل الشعر، وصولون يشترع ويتعلم ، وكليستينيس يقوّم الدمقراطية بمقوماتها، وبركليس يصغي لاقوال انكسغوراس ويجلس مع سقراط عند اقدام اسباسياء وايسكيلس ويوريبدس يبدعان الرواية التمثيلية، وافلاطون يتمشى مع تلاميذه في اكاديميته، وديوجنيس يحمل مصباحهُ الضئيل باحثاً عن رجل ، وارسطوطاليس يصنف الكون ، وزينون يخاطب اوريليوس على ما بينهما من قرون ، وسافو تنشد الشعر، واقليدس الاسكندري يبدع القضايا الهندسية. ليس هذا ما ندعوه الموت — هذا هو الحياة بل هو روح الشعب الاغريقي القديم

***

ان الذاكرة تغلب على الموت وذاكرة البشر أدق واحفظ اليوم منها في كل عصر سابق . كانت الكتابة اداة ضعيفة لنقل الذاكرة القومية واما الطباعة فاداة افعل وأدق . المدارس تحرث هذه الذاكرات وتغرسها وترعاها . وفي كل يوم يكشف عن طريقة جديدة لتقويتها . هذه تنزع من حنجرة المطرب صوتاً تخلّده في قرص قبلما يأتي الموت على الحنجرة وصاحبها . وتلك تدوّن صورة يصحبها صوت فاذا رأت الاجيال القادمة الصورة وسمعت الصوت عادت الى الاذهان صوراً مليئة بالثروة العقلية والفنية والروحية

يأتي الجفاف على بقاع الارض الخصبة وتنضب منها الحيوية ولكن الانسان يحمل ادواته وفنونهُ وينتقل الى بلاد اخرى ناقلاً معهُ ذكرياته فاذا كان التعليم قد وسّع نطاق هذه الذاكرة وقوّاها وصقلها فالحضارة تهاجر معهُ ولا تغيّر الاّ موطنها الارضي !